ردّات الفعل على الرسالة «بهاء الحقيقة»

الأب كميل حشيمه اليسوعيّ[٥]

لمّا كانت الرسالة بهاء الحقيقة تعالج موضوعًا من أخطر الموضوعات، إذ تمتّ إلى الإنسان وحياته الأخلاقيّة، ولمّا كانت تتّخذ، في معظم صفحاتها، مواقف تناقض آراء الكثير من المفكّرين المعاصرين، بما فيهم الكاثوليك، فلا عجب أن تكون ردّات الفعل حولها كثيرةً جدًّا، تتراوح لهجاتها بين المناوئة المعتدلة والمناقضة العنيفة ـ وهي غير قليلة ـ والمؤيّدة باعتدال أو ببعض الصلابة.

وأمام وفرة المراجع، واختصارًا للسرد الممِلّ، قصرنا مستنداتنا على المصادر الآتية:

١ – بعض الصحف اللبنانيّة ومجلّة عراقيّة (سنذكرها جميعها بعد قليل)،

٢ – صحيفتَي *Le Monde* و *Témoignage chrétien* الفرنسيّتين[١]

٣ – مجلّتَي *Actualités religieuses dans le monde* و *Golias* الفرنسيّتين[٢]

٤ – مجلّة *The Tablet* الإنكليزيّة[٣]،

---

(٥) مدير دار المشرق ومجلّة المشرق

(١) *Le Monde*, 6 octobre 1993, articles de P. Valadier, s.j., H. Tincq, Cardinal Lustiger, Cardinal de Courtray; *Témoignage Chrétien*, 16 octobre 1993, article de J.-P. Bagot.

(٢) *Golias*, No 34 (automne 1993), pp 29 à 83; *Actualités Religieuses dans le Monde*, 15 nov. 1993.

(٣) *The Tablet*, 11 art., from oct. 16, 1993 until january 8, 1994.

وفي الصحف الأجنبيّة المذكورة هنا إحالات إلى الكثير ممّا جاء في غيرها من الصحف العالميّة،

٥ - وأخيرًا كتاب للأديب الفرنسيّ أندره فُروسار بعنوان دفاعًا عن البابا[٤].

. وما دمنا في ذكر مراجعنا نقول، في ما يخصّ العربيّة منها، إنّها أقلّ من عدد أصابع اليد. فنصّ الرسالة لم يُنشر حتّى الآن بالعربيّة، علمًا أنّنا سمعنا عن ترجمة قام بها أحد الكهنة اللبنانيّين. وقد أقامت كلّيّة اللاهوت الحبريّة في جامعة الروح القدس بالكسليك ندوةً عَرض فيها ثلاثة من الأساتذة فصولَ الرسالة الثلاثة واكتفوا بالعرض عمدًا. أمّا الصحف اللبنانيّة فقد كان لها حتّى اليوم، على حدّ معرفتنا، ثلاث مساهمات فقط، إحداها بقلم الأستاذ ميشال أبي فاضل في جريدة النهار (٣١/١٢/١٩٩٣، ص ١٣) والأخرى للأستاذ روني ألفا في جريدة نداء الوطن (١١/١٢/١٩٩٣، ص ١٢). وخصّصت المجلّة الكهنوتيّة في عددها الثالث والأخير من سنة ١٩٩٣ مقالاً عولجت فيها رسالة البابا، إلّا أنّ تلك المقالة ليست سوى ترجمة لِما نشرته مجلّة *The Tablet* الآنفة الذكر في عددها الصادر يوم ٩ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٩٣، وهو مجرّد عرض ومختصر للرسالة. وكذلك القول عن مقالي الجريدتين اللبنانيّتين، فلم يكن فيهما لكاتبيهما ردّات فعل تذكر، إذ اكتفيا بالعرض أيضًا.

والقول نفسه يقال عمّا جاء في مجلّة الفكر المسيحيّ العراقيّة التي تصدر في الموصل، فاكتفت في عددها الصادر في تشرين الثاني/ كانون الأوّل ١٩٩٣ بعرض مفصّل للرسالة (ص ١٤٨-١٥١).

أمّا في العالم الغربيّ، فقد اختلف الأمر كلّيًّا، وانبرى المفكّرون، حتّى قُبَيل صدور الرسالة، يتناولونها بالتمحيص والنقد، فيصفّون منها البعوضة على حدّ قول الإنجيل.

---

(٤) André Frossard, *Défense du Pape*, Paris, Fayard, nov. 1993.

المعترضون

أهمّ الاعتراضات على الرسالة تلخَّص في ما يلي ـ ونبدأ بأشدّها لهجةً:

١ ـ نظرة البابا إلى العالم متشائمة. فهو يراه منغمسًا في الخطيئة، ويريد العودة إلى الماضي، إلى حقبة سادتها الانضباطيَّة والطاعة[٥].

٢ ـ لا يجوز للبابا أن يفرض تعاليمه، ولا يحقّ للكنيسة الكاثوليكيَّة أن تفرض مواقفها وتدّعي أنّها الوحيدة التي تملك الحقيقة. فمن شأن تلك المواقف أن تحدّ من مسار الحوار المسكونيّ. وجدير بالذكر أنّ أكثر القائلين بذلك هم من اللاهوتيّين البروتستانت[٦].

٣ ـ وعليه، فينبغي أن تترك الكنيسة للناس أن يفسّروا الشريعة بحسب ضميرهم، على نحو ما فسّر المسيح الشريعة بحرّيّة تامّة[٧]. ولا يجوز أن تنسى الكنيسة ما للأفراد من مسؤوليّة، فجميع المؤمنين مسؤولون ولهم كلمتهم[٨].

٤ ـ لا يحقّ للكنيسة أن تفرض تعاليمها بالحزم الذي تظهره في مجال الخلقيّات، لأنّها قد أخطأت في الماضي وما زالت تخطئ. أطلب، مثلاً، مواقفها من قبول قانون الإعدام، وحكمها السلبيّ على غليليو طوال ٣٥٠ عام[٩].

٥ ـ رسالة «بهاء الحقيقة» مغالطة، تقول الحقيقة ظاهرًا في حين هي تغلط باطنًا، إذ إنّها تخلط سهوًا أو عمدًا بين اتّباع المسيح واتّباع الكنيسة.

---

(٥) الپيلسوف Zbigniew Mikolejko، في مجلّة *Actualités Relig. dans le Monde* (مختصر: *A.R.M.*)، ١٥/١١/١٩٩٣، ص ١١.

(٦) *A.R.M.* العدد المذكور، ص ١٠.

(٧) *A.R.M.* العدد المذكور، ص ١٠.

(٨) *A.R.M.* ع. م.، ص ٢٨ و٣٤.

(٩) *Témoignage Chrétien* (مختصر: *T.C.*)، ١٦/١٠/١٩٩٣.

فهل الخضوع لتعليم المسيح يفرض الخضوع لتعاليم السلطة الكنسيّة»[١٠]؟.

٦ ـ ويقول المعترض نفسه: هذه الرسالة تحطّ من شأن الضمير وتبالغ في قولها بأنّه معرّض للخطأ، في حين تعظّم من قدر عصمة السلطة الكنسيّة. فكأنّي بالبابا يقول: أنتم أحرار، ولكن شريطة أن تطيعوا[١١].

٧ ـ يقرّ بعض المعترضين، من أمثال اللاهوتيّ هانس كُونغ، أنّ البابا استلحق نفسه، وفي الصيغة النهائيّة الرسميّة التي برزت بها الرسالة، ألغى ذكر العصمة البابويّة ذكرًا صريحًا فأبعد عن الوثيقة خطر الوقوع في غلطة فادحة، إلّا أنّ الكنيسة لم تبدّل شيئًا من تعاليمها في العمق[١٢]. ويضيف E. Drewermann في هذا الباب ما هو أشبه بالتشفّي: «ما يهمّ البابا ليس ملكوت الله، بل ملكوت الكنيسة»[١٣].

وبإزاء تلك الاعتراضات القاسية التي لا تخلو من التهجّم والمزاجيّة، ثمّة اعتراضات أقرب إلى النقد المتّزن والروح العلميّة. ونوجزها على النحو الآتي:

١ ـ دخلت رسالة بهاء الحقيقة ميدانًا ما زال فيه الأخذُ والردُّ بين المذاهب اللاهوتيّة قائمين. ويدخولها هذا الميدان على ذاك النحو من التدقيق المطلق، فإنّها تعرّض نفسها للخلل، إذ قد تُضطرّ إلى التراجع في ما بعد[١٤].

٢ ـ كما أنّ خوض المعترك بالطريقة التي تتّبعها الكنيسة من تشدُّد في المواقف، لممّا يثبّط عزائم الباحثين، ويُخشى من هذا الأسلوب تفريق الصفوف بدلًا من التوحيد بين المختلفين[١٥]. ويبدو من مواقف البابا هذه

---

(١٠) *A.R.M.*، العدد المذكور، ص ٢٥-٢٦.

(١١) *A.R.M.*، ع. م.، ص ٢٦.

(١٢) *T.C.*، ٩/١٠/١٩٩٣.

(١٣) *A.R.M.*، العدد المذكور، ص ٣٤-٣٥.

(١٤) P. Valadier, *Le Monde*, 6 oct. 1993

(١٥) المرجع نفسه.

أنّه قليل الثقة بعلماء اللاهوت. قالها بغصّة وبعض الاغتمام اللاهوتيّ الكبير برنار هيرينغ[١٦].

٣ ـ لقد أخطأت الرسالة من وجهة نظر المنهجيّة السليمة ـ والكلام هنا للفيلسوف البروتستنتيّ الشهير بول ريكُور، إذ انتقلت من مستوى «التاريخيّة» إلى صعيد «الدّوامِيّة»، أي أنّها انطلقت من حادثة تاريخيّة (هي دعوة شابّ غنيّ معيّن) لتجعل منها قاعدة مطلقة[١٧].

والرسالة لا تعالج المسائل من كونها مشاكل وإشكاليّات، ولا تأخذ بالاعتبار تطوّر الفكر منذ الأكوينيّ، بل هي تُوجِّه وحسب[١٨]. ووزاد هنا بعض الغلاة أنّها دُوغمائيّة وإيديولوجيّة، ولا تراعي تطوّر العلوم عامّةً، لاسيّما الإنسانيّة منها[١٩].

٤ ـ لا يحقّ للرسالة أن تتكلّم على الحقيقة كأنّها أمر يُقتنى، بل على أنّها ما نحن فيه. فإنّنا لا نملك الحقيقة بل هي تملكنا.

المؤيّدون

في المقابل، يقول المؤيّدون، رادّين على مَن سبقوا:

١ ـ البابا محقّ عندما يصرّ على أنّ هناك حقيقةً موضوعيّة تتعدّى الحقائق الذاتيّة وتكون لها مرجعًا. وهذه الحقيقة المرجع هي مَن لمسته أيدينا ورأته عيوننا: يسوع المسيح[٢٠].

٢ ـ ويسوع المسيح، ابن الله، هذا الكائن الأسمى والمطلق، هو محبّة، ويدعونا لا إلى تجاهل الأفراد والسيطرة عليهم، بل يدعونا إلى

---

(١٦) Bern. Häring, in *The Tablet*, oct. 23, 1993, p. 1378

(١٧) Paul Ricœur, dans *A.R.M.*, n° cité, pp 18-19

(١٨) المرجع السابق، ص ١٨-١٩.

(١٩) *Golias*, n° cité, pp 39, 38

(٢٠) *A.R.M.*, n° cité, p. 11

الفيريَّة[٢١]. والسلطات المدنيَّة العلمانيَّة نفسها تستند إلى مرجعيَّة مطلقة كما حصل يومَ أُعلنت حقوق الإنسان إبّان الثورة الفرنسيَّة العظمى سنة ١٧٨٩، فقال معلنوها إنّهم «تحسّسوا تلك الحقوق ودوّنوها وهم في حضرة الكائن الأسمى»[٢٢].

٣ ـ وليست بهاء الحقيقة مجرَّد تحذير أو تقييد للحرّيّات، بل إنّها تذكير بكرامة الإنسان وبما خُلق من أجله. وليس البابا بحاجة إلى مَن يعلّمه كيف يدافع عن حقوق الإنسان، هو الذي كانت له اليد الطولى في دكّ معاقل النظم الديكتاتوريَّة في العالم[٢٣].

٤ ـ والبابا لا يتجاهل جهود العلماء والباحثين، بل يدعوهم صراحةً إلى مساعدته ومتابعة جهودهم لتنجلي الحقيقة على أكمل وجه[٢٤].

٥ ـ أمّا عن عصمة السلطة، فلا بدّ من الثقة بالكنيسة لأنّ عصمتها هي من الله. والمسألة مسألة إيمان ولا يجوز لمَن يقول إنّه مؤمن أن يقبل ببعض الحقائق ويترك جانبًا بعضها الآخر[٢٥].

٦ ـ ولئن يشدّد البابا من لهجته فلأنّه يخشى خشيةً لها ما يبرّرها أن تطغى النسبيَّة في علم الأخلاقيّات[٢٦].

٧ ـ وحسنًا يفعل البابا برفضه النسبيَّة المائعة، إذ إنّه لا يغرب عن باله الناشئة ومستقبلها[٢٧]، كما أنّه يريدنا جميعًا أن نتسلّح بالحماسة والطموح، غير مكتفين بخلقيَّة غامضة هشّة قوامها بعض الحسّ الجماعيّ والتضامن والتحسّس بأمور العالم الثالث وما إلى ذلك[٢٨].

---

(٢١) A. Frossard, *op.cit.*, p. 96

(٢٢) A. Frossard, *ibid.*, p. 85

(٢٣) *Id., ibid*, p. 92 et 115-116

(٢٤) *The Tablet*, nov. 6, 1993, p. 1445

(٢٥) *The Tablet*, oct. 16, 1993, p. 1331

(٢٦) Mary Tuck, in *The Tablet*, dec. 4, 1993, p. 1583

(٢٧) Frossard, *op.cit.*, p. 104

(٢٨) M. Tuck, in *The Tablet*, dec. 4, 1993, p. 1331

٨ ـ والمؤيّدون يدعون الفاترين إلى الالتزام. كفى تذبذبًا وشكًّا. يجب التمسُّك بحقيقة ثابتة. صحيح أنّ الإيمان هبة من الله ولا ينبغي أن نبالغ في ثقتنا بأنفسنا، لكنّ الله بحاجة إلى تجاوبنا في هذا النطاق (حادثة شفاء غلام قائد المائة بليقة: «لم أرَ مثلَ هذا الإيمان في إسرائيل»[٢٩].

٩ ـ ويقول هنري تنّك، محاولاً أن يكون موضوعيًّا في تحليله، إنّ الرسالة قد تبدو قاسية اللهجة في إعلانها المبادئ، ولكنّ الكنيسة تعلّمت من مؤسّسها أنّه لا بدّ من الرحمة، فلا شكّ أنّها ستعرف في الواقع كيف التوفيق بين الصرامة في المبدأ وتفهّم مشاكل الناس في الحياة العمليّة[٣٠].

١٠ ـ وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى تأييد للرسالة جاء على لسان إمام المسلمين في فرنسا والمطران إرميا كبيرِ الأحبار الأرثوذكس في البلد المذكور. وممّا قاله الإمام: «إنّ هذه الرسالة شريعة كمال وحرّيّة»[٣١].

الخاتمة

عرضنا بإيجاز ردّات الفعل على رسالة البابا بهاء الحقيقة، ولم نشأ أن نعلّق عليها أو نبدي رأيًا فيها، تاركين للقارئ أن يبتّ، عالمين أنّ حَبرًا عملاقًا في حجم يوحنّا بولس الثاني يصعب نقده من جهة ولا يحتاج، من جهة ثانية، إلى مَن يبرّر مواقفه. إلّا أنّنا نودّ أن نقول في الختام كلمتين، إذ إنّنا، لو عدنا إلى نصّ الرسالة لرأينا أنّ البابا يشدّد على أمرين في غاية الأهمّيّة نتبنّاهما ونحثّ على التأمّل فيهما والأخذ بمضمونهما:

١ ـ فمَن أطاع الكنيسة في توجيهها، أطاع الله، لأنّه أوكل إليها سلطان الحلّ والربط في الشؤون الأساسيّة التي تمتّ إلى العقيدة والأخلاق. ومَن أطاع الله لا يُسْلَب حرّيّته، بل على العكس، يزداد حرّيّةً، لأنّه باتّصاله بالله يشاركه حرّيّته تامّةً.

---

(٢٩) Frossard, *opcit.*, p. 107

(٣٠) H. Tincq, art. cité plus haut

(٣١) *A.R.M.*, n° cité, p. 10

٢ ـ ثمّ إنّ الدعوة إلى القداسة لا تثبّط الهمم، وما كانت البطولة وقفًا على القدّيسين الذين تُرفع صورهم فوق المذابح، بل جميع المسيحيّين وجميع الناس معنيّون بالكمال. ونحن شاكرون للبابا تذكيرنا بواجب القداسة لأنّنا خُلقنا على صورة الله ومثاله، وما لا يستطيعه البشر الضعفاء بمفردهم يستطيعونه مع الله، فإنه سبحانه وتعالى على كلّ شيء قدير، وإنّ نيرَه ليّن وحمله خفيف[٣٢].

(٣٢) نسوق في الختام بعض الأرقام التي تبيّن مدى انتشار رسالة بهاء الحقيقة في العالم الغربيّ:
ـ صدرت منها سبع طبعات فرنسيّة مختلفة.
ـ حتّى يوم ١٥/١١/ ١٩٩٣، أي بعد ٣ أشهر من صدورها، بيع منها نحو ١٦٠,٠٠٠ نسخة في فرنسا وحدها.